تيارات اليقظة والإصلاح في المغرب العربي

(1830 -1956م)

أ.د أبو القاسم سعد الله

كان القرن التاسع عشر فترة تحولات هامة في البلاد العربية❖ عموماً والمغرب العربي على وجه الخصوص، ففي الوقت الذي مر فيه المشرق بالحملة الفرنسية على مصر، والحركة الوهابية[1] وتوسعات محمد علي باشا في الحجاز والشام والسودان[2]، كان المغرب العربي يشهدالحملة الفرنسية على الجزائر وتحولات في نظم الحكم في كل من ليبيا وتونس والمغرب وتغييرات في النظم الاجتماعية والرؤى التعليمية والقيم الثقافية.

ففي 1830م احتل الفرنسيون الجزائر ونفوا حاكمها وألغواحكومتها وفرضوا عليها الاستعمار المباشر القائم على إلحاقها إدارياً وسياسياً بفرنسا، وتسييرها عسكرياً لمواجهة المقاومة الكبيرة التي قادها فترة طويلة الأمير عبد القادرالجزائري الشهير ثم آخرون بعد نفيه. وقد تميز الاستعمار المباشر هذا بفرض اللغة الفرنسية مكان اللغة العربية، وإحلال المستوطنين الأوروبيين محل الأهالي بعد طرد هؤلاء من أراضيهم الخصبة، وإدخال التشريعات والقوانين الفرنسية مكان الشريعة الإسلامية، واتباع سياسة التجهيل نحو الأهالي بالاستيلاء على مؤسسات الوقف التي

❖ هذه الدراسة ظهرت في مجلة (الندوة) الأردنية سنة 2002. وبعد ذلك نقحناها وأضفنا اليها التعاليق، وقدمناها للنشر من جديد في شكلها الجديد، والدراسة نفسها قدمت للنشر ضمن كتاب (بحوث في التاريخ العربي الإسلامي).

كانت تغذي التعليم وتمون العلماء والمدرسين وجعل المؤسسات الدينية كلها بما فيها المساجد والزوايا والمدارس والأضرحة وموظفيها، تحت الإدارة الفرنسية[3]. وقد دام هذا الوضع دون تغيير يذكر إلى مطلع القرن العشرين.

وكان احتلال الجزائر مقدمة لاحتلال تونس والمغرب ثم ليبيا،

ولكن قبل الاحتلال تعرضت تونس إلى ضغوط فرنسية من أجل التغيير لخدمة المصالح الفرنسية، فقد كان على حكام تونس أن يعدلوا من سياستهم الداخلية حتى لا تتعارض مع المصالح الفرنسية في المنطقة، وأن يقطعوا أو يخففوا من علاقتهم بالدولة العثمانية، وأن تكون وجهتهم هي أوروبا وفرنسا وليس الشرق. وهكذا قامت تونس قبل الاحتلال بإصلاحات سياسية وإدارية واقتصادية أشرف عليها المشير أحمد باي أحد ابناء الأسرة الحسينية الحاكمة[4]، ولم يكد ينتهي عهده (1857) حتى ضغط الفرنسيون على أحد خلفائه[5] لصياغة وثيقة تدعى (عهد الأمان)[6] أعطى بمقتضاها امتيازات للأجانب المقيمين في تونس[7] وسمح بالتدخل الفرنسي

والإيطالي لمراقبة الميزانية. وأخيراً فرضت فرنسا حمايتها على تونس (1881م) فأبقت على ظل حكومة البايات، ولكنها كانت هي المسيرة للشؤون الاقتصادية والمالية والدفاعية والخارجية، كما أنها فتحت تونس أمام المستوطنين الأوروبيين والرأس المال الفرنسي، وفرضت اللغة الفرنسية إلى جانب العربية[8]، وتدخلت في برنامج و إدارة جامع الزيتونة، وتوجيه التعليم والقضاء، ولكن اختلاف نظام الاستعمار بين تونس والجزائر جعل تطور الأولى السياسي والثقافي يختلف إلى حد كبير حتى مطلع القرن العشرين، كما سنرى.

وكذلك عرفت ليبيا تحولات إدارية ودينية وغيرها. فبعد أن كانت تحت الأسرة القرمانلية[9] المعترفة بالسيادة العثمانية قام الباب العالي كرد فعل على احتلال فرنسا للجزائر، بفرض الحكم العثماني المباشر وذلك بإلحاق ليبيا بالباب العالي وإلغاء حكم القرمانليين وتعيين الباشوات (الحكام) مباشرة من إسطانبول ابتداء من سنة 1835م. [10] وكثير مما حدث في ليبيا من تطورات قبل احتلالها من قبل إيطاليا سنة 1911م كان انعكاساً لما كان يحدث في الدولة العثمانية، وكان ذلك يهدف إلى مواجهة الضغوط الفرنسية التي كانت تمارس على ليبيا من الجزائر ومن قبل قناصل فرنسا في طرابلس، مثل دي رينو De Reynaud، وفيرو Feraud.[11] لقد كانت فرنسا تتدخل في شؤون ليبيا العثمانية بشتى

الوسائل ولا سيما في إقليمي طرابلس وفزان. وكانت السنوسية قد بنت لنفسها قاعدة في إقليم برقة (بني غازي) على يد الشيخ محمد بن علي السنوسي[12] الذي جعل من واحة جغبوب قاعدة لزاويته التي شهدت تطورات هامة بين 1850 -1911م سواء على يده هو أو على يد أبنائه وأحفاده. وأهم ما قامت به السنوسية عندئذ هو إعطاؤها مفهوماً مختلفاً لدور الطريقة الصوفية، فلم يعد دور الطريقة هو العزلة والابتعاد عن الأحداث ولكن التربية والتعليم والتكوين الروحي والعسكري وتنقية الدين الإسلامي من شوائب البدع. وهكذا فإنه لم تحن سنة 1911م حتى كانت ليبيا مهيأة سياسياً وروحياً لصد الغزو الإيطالي رغم انسحاب القوات العثمانية من الميدان.[13]

أما المغرب الأقصى (مراكش) فقد بدأ التحول فيه منذ منتصف الأربعينات من القرن التاسع عشر، ذلك أنه لم يستطع أن يبقى بعيداً عن أحداث الجزائر المجاورة، فالسلطان إذا ساند المقاومين الجزائريين واجه غضب الفرنسيين، وإذا رفض حماية الجزائريين واجه غضب شعبه، ولم يكن في استطاعته البقاء على الحياد، وكانت معركة إيسلي سنة 1844م حاسمة في تاريخ المغرب إذ انهزم فيها الجيش على يد القوات الفرنسية التي عاقبته على تدخله في شؤون الجزائر. فإذا بسلاطين المغرب يكتشفون ضعف

نظامهم ويقررون الدخول في مرحلة التحديث. وهكذا بدأ السلطان عبد الرحمن بن هشام هذه المرحلة ثم واصلها وطورها بعده السلطان الحسن الأول. ولكن تصميم المغرب على الخروج من التخلف الإداري والعسكري والمالي لم يرق للفرنسيين الذين كانوا يتدخلون في شؤونه لخلق الطائفية وتشجيع القبلية والإقليمية حتى لا يستطيع السلاطين إحكام قبضتهم والسيطرة على الأوضاع في البلاد، وبذلك يسهل على فرنسا فرض استعمارها الذي أعطته اسم الحماية سنة 1912م. فكان المغرب آخر قلعة عربية إسلامية استولى عليها الأوروبيون (فرنسا وإسبانيا) ومنعوا تطورها الطبيعي. وقد اطلق بعض الباحثين اسم "اليقظة" على مرحلة التحول الذاتي في المغرب وهي اليقظة التي شملت تحديث الإدارة والجيش والنظام المالي، وجوانب تعليمية وثقافية هامة [14].

كانت الحرب العالمية الأولى إذن مرحلة هامة وتكاد تأثيراتها تكون مشتركة بين أقطار المغرب العربي . وإذا كانت ليبيا قد دخلت في حرب شعبية مستعرة مع الإيطاليين فإن الأقطار الثلاثة الأخرى (الجزائر وتونس والمغرب) قدعاشت تجربة متشابهة. فالدولة المستعمرة واحدة (عدا إسبانيا في شمال المغرب)، وقد فرض الفرنسيون التجنيد الإجباري على شباب هذه الأقطار لكي يخدموا في جيشها ضد الدولة العثمانية المتحالفة مع ألمانيا، وكان

الاضطهاد والهروب من الخدمة العسكرية، والغيرة الوطنية قد ساعدا على خروج عدد من قادة هذه الأقطار إلى المشرق وإلى أوروبا وتأليف لجان وجمعيات لتحرير بلدانهم، وكان ذلك مدعاة للتنسيق فيما بينهم والبحث عن الأنصار في الدول الأخرى ومخاطبة الرأي العام العربي والإسلامي بخطاب الاستغاثة والتعاون[15]، ويمكن القول إن الحرب العالمية الأولى كانت "مدرسة" تعلم فيها شباب المغرب العربي الوطنية وقيادة الأحزاب، والاعتماد على الإعلام والبحث عن الأصدقاء، وقد تشجع هذا الشباب بتصريح الرئيس الأمريكي ويلسون عن تقرير المصير وبالثورة الروسية على الرأسمالية والاستعمار، وبمعاشرة الأوروبيين في بلدانهم وفي ميادين القتال. ولذلك كانت سنوات 1919 -1939م تمثل مرحلة النضج لدى الحركات الوطنية والإصلاحية في المغرب العربي.

رغم ما قيل عن سلبيات الاستعمار فإنه كان بالنسبة لكثير من الشعوب الصدمة التي أيقظتها لتكتشف هويتها ومصيرها. ونحن نجد ذلك واضحاً لدى شعوب المغرب العربي. فابتداء من الجزائر نلاحظ يقظة الطرق الصوفية التي أخرجت أمثال الأمير عبد القادر ليصبح بطلاً إسلامياً وقومياً. ومعظم الثورات التي حدثت بعده ضد الفرنسيين كان قادتها من صفوف هذه الطرق، ولا سيما في الأرياف. وقد تأخر ظهور القادة

السياسيين في الجزائر نظراً لقضاء الفرنسيين على نخب المدن واتباع سياسة التجهيل، بينما اختلف الأمر في تونس. فسياسة المشير أحمد باي قد تولدت عنها فئة اجتماعية متسيسة ومتعلمة. وهذه الفئة هي التي ستواجه الاحتلال حين بدأ سنة 1881م. وهكذا فإننا في تونس لا نكاد نجد دوراً يذكر للطرق الصوفية في مواجهة الفرنسيين. وكان لعلماء جامع الزيتونة دور آخر مهم في قيادة النضال السياسي، بينما لا نجد لعلماء الجزائر مثل هذا الدور لسببين: الأول عدم وجود مؤسسة تعليمية كالزيتونة، والثاني أن الشؤون الدينية في الجزائر كانت كلها بيد الفرنسيين. وقد كانت ليبيا أقرب إلى الجزائر من حيث الدور الذي لعبته الطريقة (السنوسية) سواء في ميدان التربية والتعليم أو في مواجهة الاحتلال عسكرياً. حقيقة أنه كان لليبيا دور آخر وهو التعاون مع الدولة العثمانية سياسياً أيضاً قبل 1911م، ويظهر ذلك من تعيين ليبيين في مجلس الأمة (المبعوثان) في إسطانبول، وهي تجربة لم تعرفها أقطار المغرب العربي الأخرى. أما المغرب فقد جرب الحياة السياسية الجديدة متأخراً نظراً لتأخر احتلاله 1912م ، أما تجاربه قبل هذا التاريخ فقد كانت منصبة في معظمها على الشؤون العسكرية والإدارية، ومع ذلك كانت للمغرب كوادر سياسية تقليدية تمثلت في موظفي القصر وحكام الأقاليم وكبار العلماء المرتكزين في

جامع القرويين. ويمكن أن نضيف إلى ذلك فئة قوية من أهل المدن، وبعض الطرق الصوفية، ولكن هذه العناصر لم تستيقظ أيضاً إلا على دقات الاحتلال.

إن اليقظة قد اختلفت من قطر إلى آخر كما أن الإصلاح قد اختلف تبعاً لذلك. فما اليقظة؟ وما الإصلاح؟ إن البعض قد يخلط بين اليقظة والنهضة. ونحن ندرس للطلبة في الجامعات النهضة الإسلامية والنهضة العربية وقلما نستعمل اليقظة في نفس المعنى، وكأننا نقلّل من شأن هذه اللفظة (اليقظة) ونريد أن نقفز إلى النهضة لأنها ربما توحي بتجاوز مجرد الشعور إلى العمل. فالنهضة لا تعني الازدهار والإنجاز العظيم، بينما استعمل الأوروبيون تعبير النهضة في معنى اليقظة عندنا، وهو شعور لا يعني العمل والإنتاج ولا الازدهار والإنجاز العظيم، إنه مجرد فرك العينين وفتح النوافذ والتعرف على الأشياء، ولو كنا متواضعين في استعمالنا اللغوي لاكتفينا باليقظة إلى الوقت الحاضر، فنحن أبعد ما نكون عن النهضة وأقرب ما نكون إلى اليقظة بالمفهوم السابق.

ولذلك فإن الجزائريين سنة 1830م قد استيقظوا على الاحتلال وهو يطيح بحكومتهم ويستولي على أملاكهم ويغتصب أراضيهم فقاموا يتحسسون مواقعهم ويجمعون شملهم لمقاومته وقد أخذ ذلك الشعور فترة طويلة ليتحول إلى شعور بالنهضة. وكذلك

فعل التونسيون والليبيون والمراكشيون، ولكن وسائل التحسس وجمع الشمل قد اختلفت من قطر إلى آخر، وربما كانت تونس أقرب إلى مرحلة اليقظة الذاتية المبكرة، أي السابقة للاحتلال خلافاً لجاراتها، نظراً لسبقها في التحديث قبل الاحتلال، فإلى جانب التغيير الذي أحدثه أحمد باي هناك إسهام خير الدين التونسي الذي جسد تجربته في كتابه (أقوم المسالك في أحوال الممالك)[16] الذي نشر سنة 1867م، وقد ضمن كتابه اقتراحات وتوصيات لو أخذ بها المسلمون في نظره لنهضوا وصلح حالهم، وقد استقى ذلك من مشاهداته في أصقاع أوروبا الغربية، ولكنه لم يدع إلى استنساخ التجارب الأوروبية، بل كان يعرف الحدود بين تعاليم الإسلام وتجارب أوروبا، سيما وأن الأفكار التي تضمنها كتابه صاغها علماء متنورون من جامع الزيتونة : محمد بيرم الخامس وسالم بوحاجب ومحمد السنوسي. وإذا كان جامع الزيتونة، رغم إصلاح مناهجه، يمثل قلعة القديم فإن المدرسة الصادقية كانت تمثل المنشأة الحديثة، بمفهوم ذلك الوقت، لأنها جمعت بين الثقافتين العربية والفرنسية. وأخرجت قيادات "الشباب التونسي" الذي تقدم الحركة الوطنية بمفهومها الحديث. وكانت الصحافة في تونس تلعب دور الموقظ أيضاً فإلى جانب صحافة الاحتلال ظهرت الصحف الوطنية ممثلة في الزهرة والحاضرة والتونسي. وتعاون

علماء الزيتونة مع نخبة الصادقية فكان عبدالعزيز الثعالبي وصالح الشريف ومحمد الخضر حسين إلى جانب علي باش حانبه وأخيه محمد والبشير صفر[17]. وكانت زيارتا الشيخ محمد عبده (لا سيما الثانية سنة 1903م) قد وجدت تونس مهيأة للدخول في مرحلة النهضة لولا وقوع الحرب العالمية الأولى وكبت الحريات وتشريد القادة.

ومن جهتها عرفت الجزائر مرحلة اليقظة التي أشرنا إليها، وكادت أيضاً تنطلق في مرحلة جديدة اصطلح عليها منذ العشرينات من القرن العشرين بالنهضة. ففي مطلع هذا القرن تقاربت وجهات نظر العلماء المحافظين العاملين في سلك الإدارة الفرنسية والعلماء المستقلين أو الأحرار مع وجهات نظر خريجي المدارس الفرنسية من النخبة التي أصبحت تعرف "بالمتطورة". وكانت حاجتهم إلى التلاقي والتكاتف والتفاهم قد فرضها التجنيد الإجباري الذي فرضته فرنسا على الشباب، وهكذا نجد عبد الحليم بن سماية وعبد القادر المجاوي والمولود بن الموهوب من العلماء الموظفين ينسقون جهودهم مع مثقفين متطورين (متنورين) من أمثال محمد بن رحال وأحمد بو ضربة والشريف بن حبيلس. وبدأ الحديث عندئذ عن ظهور جماعة "الشباب الجزائري" على غرار الشباب التونسي والشباب المصري والشباب التركي، وهو مصطلح وارد على العالم العربي والإسلامي من أوروبا، روجت له

وسائل الإعلام الغربي/ الاستعماري عندئذ، وكان الهدف منه إبراز دور النخب المتكونة في المدارس الغربية على حساب النخب التقليدية (العلماء) الذين فاتهم في نظر خصومهم ركب الحداثة وفهم روح العصر. وقد أدت هذه النظرة الغربية إلى عزلة واضطهاد عدد من العلماء التقليديين فاختاروا الهجرة إلى المشرق أمثال حمدان الونيسي أو الانسحاب من الميدان مفضلين العافية على المواجهة. وكان للنوادي والجمعيات والصحافة وزيارة الشيخ محمد عبده (1903م)، تأثير واضح على مسيرة اليقظة في الجزائر، كما في تونس، ودخولها عهد النهضة غداة نهاية الحرب العالمية الأولى.[18]

ولكن التجربة الليبية تختلف عن تجربة الجزائر وتونس في هذا المجال، فقد بقيت ليبيا إلى سنة 1911م، على صلة بتطورات الدولة العثمانية، كما أشرنا، رغم أن نشاط الحركة السنوسية كان يحاول ألا يرتبط بهذه الدولة، وكان يفضل العمل المستقل وربما السري، أي الذي لا يستطيع العثمانيون مراقبته خشية احتواء الحركة سياسياً. وعندما وقع الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد، سنة 1908م أحست به ليبيا ربما أكثر من غيرها، وقدمت نواباً عنها للبرلمان العثماني، كان منهم سليمان الباروني باشا، وكان الباروني قد درس في الجزائر على الشيخ محمد بن يوسف اطفيش في واحات بني مزاب حيث معهد بني يسقن الذي أسسه

الشيخ اطفيش نفسه. كان وجود الباروني بالجزائر بين 1896 - 1899م، وهي فترة انتقالية في الجزائر نفسها. ومن الجزائر تنقل الباروني بين تونس ومصر، وأسس جريدة (الأسد الإسلامي)، والمطبعة البارونية في مصر، قبل أن يصبح عضواً في البرلمان العثماني، وكان الباروني بحكم القناعة والوظيفة من أنصار الجامعة الإسلامية التي كان رائدها جمال الدين الأفغاني، بل أنه ظل على هذه العقيدة حتى بعد صعود أتاتورك إلى الحكم وإلغاء الخلافة. ومن جهة أخرى بقي الباروني على ولائه للاتحاديين وتعاون معهم ومع الألمان ضد الإيطاليين خلال الحرب العالمية الأولى.[19] هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت السنوسية نشطة في ليبيا بطريقتها، وقاومت الاحتلال الإيطالي بوسائلها، ومن أنصارها الذين لعبوا دوراً هاماً في المقاومة في هذه الأثناء الشيخ عمر المختار الذي أصبح رمزاً للكفاح بعد إعدام الايطاليين له شنقا رغم تقدم سنه. وظهرت في ليبيا شخصيات أخرى مقاومة بالسلاح أو بالقلم، فكان مصيرها التشريد والاضطهاد، وهو المصير الذي لقيه الباروني نفسه. ولكن الليبيين عادوا بعد الحرب العالمية الثانية واجتمعوا على كلمة سواء وصياغة دستور للبلاد وإقامة نظام ملكي يحل محل الحكم البريطاني الذي خلف الإيطاليين بعد هزيمتهم في الحرب وسقوط نظام موسوليني.

أما المغرب فقد كان مستقلاً عن الدولة العثمانية، فعاش تجربته الخاصة سواء قبل مرحلة اليقظة أو بعدها، وقد كان عهد السلطان الحسن الأول يشبه من حيث الإصلاحات والضعوط الأجنبية، عهد السلطان عبد المجيد العثماني، كلاهما كان تحت ضغط الدول الأجنبية لإجراء "التنظيمات" التي تعني فتح المجتمع الإسلامي وحماية مصالح الرعايا الأجانب، وإدخال النموذج الغربي في الجيش والإدارة على الخصوص. ففي نهاية القرن التاسع عشر كانت الدول الغربية تتنافس على المغرب مما مد في عمر استقلاله، ولو ظاهرياً، لأن كل دولة أوروبية كانت تريد أن تنقضّ هي الأولى عليه أو على الأقل أن يكون لها سهم وافر منه. وكان الضغط الفرنسي على المغرب أكثر الضغوط وقعاً نظراً للعامل الجغرافي والاستراتيجي. وكان الفرنسيون حريصين على أن يحكم المغرب حكومة موالية لهم وقادرة على الاستجابة لمطالبهم الاقتصادية والأمنية. ومنذ أوائل القرن العشرين توجه إلى المغرب عدد من الفرنسيين و الجزائريين المبعوثين من قبلهم فهيأوا التربة بإنشاء المدارس ودراسة الموارد والتأثير على القصر والنخبة بل والطرق الصوفية واكتسابها إلى جانبهم، وقد عرف المغرب الصحف والاتصال بمعاهد المشرق قبل الحماية[20]. وكان التنافس بين فرنسا وإسبانيا إيجابياً على المغرب في هذا المجال.

أما بعد الحماية فقد انشغل أهل المغرب بالمقاومة التي قادها بالخصوص الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي في جبال الريف، ثم بالوقوف في وجه (الظهير البربري) الذي هدف الفرنسيون من ورائه إلى تقسيم السكان، غير أن الجيل الذي تعلم في المدارس الفرنسية، سواء في المغرب نفسه أو في باريس كان بطيئاً في أخذ زمام الأمور، وكان معظم أفراده من العائلات الموسرة (الأرستقراطية) في المدن. ومنذ الثلاثينات من القرن العشرين ظهرت الحركة الوطنية واتصلت بمثيلاتها في الجزائر وتونس، وكان للأمير شكيب أرسلان دور في تنشيط هذه الحركة لا سيما في الشمال (المنطقة الإسبانية).[21]

وهكذا وجدت الحرب العالمية الثانية المغرب على استعداد، لا سيما الأحزاب والرأي العام، للمطالبة بالاستقلال، وكان لكتلة العمل الوطني ثم حزب الاستقلال دور بارز في المطالبة برفع الحماية الفرنسية عن كاهل المغرب. أما الشخصيات التي هيأت الأجواء في المغرب فمنها الشيخ شعيب الدكالي بدروسه السلفية ومحمد العتابي بنضاله على المسرح الدولي، وعلال الفاسي بزعامته لحزب الاستقلال [22]. وهناك بالاضافة إلى هؤلاء، قيادات نخبوية من أبرز المدن تزعمت حركات سياسية وثقافية ساهمت في تسريع تحرير المغرب سنة 1956.

وفي الجزائر عرفت فترة ما بين الحربين العالميتين ظهور أحزاب وجمعيات قادت البلاد إلى الثورة فالاستقلال . فالأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر، طالب أولا بتطبيق تقرير المصير على الجزائر، واستمر في نضاله حتى نفاه الفرنسيون إلى خارج البلاد. وبتأثيره ظهر سنة 1926م. نجم الشمال الأفريقي الذي طالب زعيمه مصالي الحاج باستقلال الجزائر في مؤتمر عالمي انعقد في بلجيكا سنة 1927م. وعندما منعت فرنسا النجم من النشاط تأسس حزب الشعب الذي خطط للثورة المسلحة ضد الفرنسيين، وهناك أحزاب أخرى توفيقية لم تطالب إلا بالاستقلال الداخلي أو دولة متحدة مع فرنسا. ولكن جمعية العلماء التي تأسست سنة 1931م بزعامة عبد الحميد بن باديس كان لها الفضل في بعث الروح القومية والروابط الإسلامية مع المشرق وتحضير الشعب لغوياً وفكرياً واجتماعياً للاستقلال، إذ نافست الجمعية المدرسة الفرنسية في التربية والتعليم، وأحيت في الشباب روح الاعتزاز بحضارته العربية الإسلامية.[23]

وكذلك كان لتونس قيادتها ونهضتها بين الحربين أيضاً. فلم تكد تنتهي الحرب العالمية الأولى حتى ظهر عبد العزيز الثعالبي على المسرح مؤسساً الحزب الدستوري، ومنادياً برفع الحماية عن تونس. و كان الثعالبي ممن زار المشرق عدة مرات، وتأثر بمبدأ

تقرير المصير، ولكن السلطات الفرنسية نفته، فبقي الميدان لأتباعه، وهم جيل جديد من خريجي المدرسة الصادقية والمدارس الفرنسية، وكانت رؤيتهم في النهضة والإصلاح تختلف عن رؤية شيخهم. فقاموا في الثلاثينات بتأسيس حزب دستوري جديد وانتخبوا على رأسه الحبيب بورقيبة الذي قاد تونس إلى الاستقلال سنة 1956م، وقد عرفت تونس بالإضافة إلى ذلك نشاطاً ملحوظاً في الأدب والمسرح والصحافة والجمعيات المدنية. ويكفي أن نشير هنا إلى اسم أبي القاسم الشابي الشاعر الرومانتيكي المعروف.

وفي الختام نقول أن بلدان المغرب العربي قد عرفت يقظة منذ أوائل القرن التاسع عشر، وسرعان ما تحولت هذه اليقظة إلى تنظيمات وطنية في المغرب وتونس وليبيا. وإلى وعي نهضوي ثوري في الجزائر، وقد لعبت النخب المحافظة والنخب الجديدة دوراً هاماً في التنافس على الريادة وإدخال ما أسموه بالإصلاح الاجتماعي والسياسي والفكري في مختلف المجالات، بما في ذلك مجال المرأة [24] والتطلع إلى تعلم اللغات والعلوم، والدعوة إلى تقليد اليابان في نهضتها العلمية والاقتصادية، بل إن بعضهم قال إن الإسلام لا يتعارض مع التقدم الغربي، ونادى آخرون بنبذ الخرافات وتحرير الأفكار.

الهوامش

1 - نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب، من أهل القرن 12 هـ - 18 م . تزعم حركة إصلاحية سلفية مبنية على فكر أحمد بن تنمية. انضم إليه سعود أمير نجد، وقاما بثورة إصلاحية وسياسية. وجهت الدولة العثمانية ولاتها في المنطقة للقضاء على هذه الحركة، واستطاع محمد علي باشا والي مصر، أن يستولي على الحجاز وأن يصل إلى الدرعية، عاصمة أمير نجد، وأن يهدمها.

2 - استولى ابنا محمد علي باشا، والي مصر: اسماعيل وطوسون، على السودان باعتباره مصدرا لثروة اقتصادية وبشرية. كما استولى ابنه ابراهيم باشا على الشام وحكمه باسم والده حوالي عشر سنوات، وقد هدد جيش ابراهيم اسطنبول نفسها بوصوله إلى مدينة قونية في الأناضول.

3 - أنظر البر ديفوكس، المؤسسات الدينية في مدينة الجزائر، الجزائر 1878 . وكذلك ابو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي ج ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

4 - الحسينية نسبة إلى الحسين بن علي، أحد بايات تونس، تولى الحكم سنة 1705 وجعله وراثيا في أولاده وأحفاده وعائلته، ومنهم المشير أحمد باي الذي تولى سنة 1837، وأدخل إلى تونس بعض النظم الغربية بضغط من فرنسا بعد احتلالها الجزائر. وتوفي سنة 1855

5 - هو محمد باي الذي لم يدم عهده طويلا، ولكنه تميز بحادث هام هو وإصداره (عهد الأمان) سنة .1857

6 - عن تفاصيل عهد الأمان وظروفه وتدخل الدول الغربية بشأنه، أنظر أحمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان ... ط 1، تونس 1962، ج4 ، ج.5

7 - افتعلت فرنسا حدثا حدوديا مع بعض قبائل تونس وأرسلت بجيشها من الجزائر لفرض الحماية على تونس وتوقيع معاهدة مع الباي تعرف بمعاهدة باردو، .1881

8 - لم تعامل فرنسا اللغة العربية في تونس كلغة أجنبية مثل مافعلت معها في الجزائر، وإنما قدمت عليها اللغة فرنسية، وقد أرسلت من الجزائر إلى تونس السيد " ماشويل" الذي كان أستاذ اللغة العربية في الجزائر، مديرا للتعليم في تونس، فوضع له منهجا جديدا، بما في ذلك منهج التعليم في جامع الزيتونة.

9 - حكمت الأسرة القرمانلية طرابلس (ليبيا) أكثر من قرن، ومؤسسها هو أحمد القرمانلي الذي بدأ حكمه سنة 1711، وكانت لها سياسة داخلية وخارجية شبه مستقلة عن الدولة العثمانية.

10 - عندما احتل الفرنسيون الجزائر، راجع العثمانيون وجودهم في شمال إفريقيا، وألغوا حكم القرمانليين سنة 1835، وأعادوا ليبيا إلى المركزية بإسطانبول، فرجع السلطان إلى تولية باشا طرابلس كل ثلاث سنوات تقريبا.

11 - ترك كل منهما مؤلفا هاما في ميدانه. فديرينو ترك (الحوليات الجزائرية) في مجلدين حكى فيهما التاريخ الإداري والعسكري للاستعمار الفرنسي في الجزائر إلى الخمسينات من القرن 19. أما فيرو فترك (الحوليات الليبية) وهو تأليف في تاريخ ليبيا ونمط حكمها ومجتمعها . وقد قام بترجمة الحوليات الأخيرة والتعليق عليها عبد الكريم الياني، طرابلس، دار الفرجاني، د.ت.

12 - محمد بن علي السنوسي ولد نواحي مستغانم بالجزائر، ودرس في القرويين بالمغرب، وصادف رجوعه نحو بلاده احتلال فرنسا للجزائر، فواصل رحلته جنوبا – شرقا (الأغواط، بوسعادة ، بسكرة ...) إلى تونس فمصر فالحجاز. وبعد حوالي 15 عشر عاما في مكة نزل برقة وأسس زاويته الأولى في واحة جغبوب، وتوفي سنة 1859.

13 - بعد أن حارب القادة العثمانيون، وعلى رأسهم أنور باشا ومصطفى كمال (أتاتورك فيما بعد)، وعدد من القادة العرب الذين يناصرونهم، امثال الأمير علي باشا النجل الثاني للأمير عبد القادر، وعبد الرحمان عزام الذي أصبح أول أمين عام لجامعة الدول العربية، انسحبوا من ليبيا لمواجهة حرب أخرى في البلقان، وتركوا أهل ليبيا لمصيرهم مع الإيطاليين سنة 1911.

14 - أنظر محمد العربي معريش: إصلاحات السلطان الحسن الأول، دار الغرب الإسلامي بيروت 1988 . أنظر أيضا محمد المنوني: يقظة المغرب الحديث.

15 - أنظر عن ذلك أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992.

16 - ط.1 ، سنة 1867 . وهو بصياغة جماعة من علماء الزيتونة كانوا من أنصار الإصلاح وأصدقاء المؤلف (خير الدين باشا). حققه وقدمه المنصف الشنوفي، تونس 1997

17 - من مؤسسي الجمعية الخلدونية، وكان من المؤثرين على الشيخ عبد الحميد بن باديس أثناء حياته طالبا في تونس. وعند وفاة البشير صفر ذهب ابن باديس من قسنطينة لحضور حفل تأبينه. وكان صفر من أعيان حركة شباب تونس .

18 - استعمل الكتّاب عبارة (النهضة) لفترة العشرينات في الجزائر، وهي الفترة التي شهدت ظهور الأمير خالد وعدد من القيادات الحزبية والإصلاحية، بالإضافة إلى الصحف و النوادي.

19 - درسنا حياة سليمان الباروني في بحث نشرناه في مجلة الثقافة سنة 1996 . وهو بحث منشور أيضا ضمن كتابنا : بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت .2003

20 - كانت المنطقة المحكومة من اسبانيا تسمى المنطقة الخليفية. وقد عرفت تطورا واضحا في العلاقة مع المشرق العربي أكثر من علاقة المنطقة الفرنسية معه. وقد لا يكون التنافس هو وحده وراء كسب المغاربة والمشارقة معا، فقد يكون وراء ذلك صلة اسبانيا الحضارية بالمشرق التي هي أكثر عمقا من صلة فرنسا به.

21 - كان شكيب أرسلان قد ربط صلات في اوروبا مع طلاب المغرب العربي، ولا سيما طلاب المغرب الأقصى، بعد إصداره جريدة (الأمة العربية) في جنيف، وجولاته في فرنسا واسبانيا. وكانت عائلة بنونة التيطوانية من أبرز العائلات التي ربط شكيب أرسلان صلته بها. ومن المرجح أن أرسلان قد دخل شمال المغرب، ولكن أغلب علاقته كان بطريق المراسلات والمبعوثين.

22 - التقينا به في القاهرة عدة مرات. وله مؤلفات عديدة منها(الحركات الاستقلالية في شمال إفريقيا)، طنجة، 1948

23 - تعليم اللغة العربية وتاريخ الإسلام في المدارس، والدعوة إلى اليقظة والإصلاح في المساجد، والمحاضرات في النوادي، والأناشيد للكشافة الإسلامية كلها تصب في هذا التيار، وهو العودة بالجزائر إلى أصالتها وهويتها العربية الإسلامية، وهو ما كانت تفتقده برامج الأحزاب لأنها كانت تركز على الاستقلال السياسي فقط.

24 - ألف مصطفى خوجة (الكمال) تأليفين في هذا المجال الأول سماه: الاكتراث بحقوق الإناث، 1898، والثاني في أحكام الزينة والاحتجاب، 1911 . كما ألف

الطاهر الحداد كتابه امرأتنا والمجتمع، وهو كتاب يتمتع بشهرة أكثر من كتابي مصطفى خوجة، ربما للضجة التي أثيرت حوله وحول آراء صاحبه.

بعض المراجع

- الإبراهيمي، محمد البشير، **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م.
- التونسي، خير الدين باشا، **أقوم المسالك**، تونس، 1867م. وقد طبع عدة طبعات بعد هذا التاريخ.
- الجراري، عباس، "أبو شعيب الدكالي"في **الأكاديمية** 7 ديسمبر 1990م، ص 15 -126.
- الجنحاني، الحبيب،" الحركة ألإصلاحية في تونس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر"، **حوليات الجامعة التونسية**، 4، 1969، ص 111 -163.
- جوليان، شارل أندري، **أفريقية الشمالية تسير**، ترجمة المنجي سليم وآخرون، تونس/ الجزائر، 1976م.
- السبتي، مخلص، "السلفية الوهابية بالمغرب"، منشورات **المجلة المغربية للاجتماع السياسي**، 1993م.
- السبيطلي، محمد الطاهر، **محاضرات في تاريخ ليبيا**، بيروت، 1960م.
- سعد الله ، ابو القاسم، **رائد التجديد الإسلامي: ابن العنابي**، ط2، بيروت، 1992م.
- سعد الله ، أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي**، بيروت، 1998م.
- سعد الله ، أبو القاسم،" الأمير شكيب أرسلان، والقضية الجزائرية" ضمن "**أوراق في التاريخ والأدب**"، مهداة إلى الأستاذ الدكتور نقولا زيادة، لندن، 1992م.
- ابن شنب، رشيد، "زيارة الشيخ عبده للجزائر 1903"، **مجلة الدراسات الإسلامية** Studia Islamica 53 .(1981), pp. 121-135 (بالفرنسية).
- ابن شنب سعد الدين، "النهضة العربية بالجزائر في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة"، **مجلة كلية الآداب I** ، الجزائر،1964م، ص ص 44 -66.

- الشنوفي، المنصف، مصادر عن رحلتي الشيخ محمد عبده إلى تونس، **حوليات الجامعة التونسية**، 3، 1966.
- الشنوفي، المنصف،" زيارتا الشيخ محمد عبده لتونس"، **في الكراسات التونسية**، 12، 1968، ص ص 57 -95 (بالفرنسية).
- الطالبي، عمار، **ابن باديس: حياته وآثاره**، الجزائر، 1968م.
- عباس، فرحات، **ليل الاستعمار**، ترجمة أبو بكر رحال، المغرب (د.ت) .
- غلاب، عبد الكريم، **تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب**، الرباط، 1986م.
- لاندو روم، **تاريخ المغرب في القرن العشرين**، ترجمة: نقولا زيادة، بيروت، 1963م.
- المدني، أحمد توفيق، **كتاب الجزائر**، الجزائر، 1350هـ.
- مراد علي، "التعليم السياسي لمحمد عبده للجزائريين 1903م" **في مجلة الشرق** Orient ، 28، 1963م، (بالفرنسية).
- المنوني، محمد، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، دار الغرب الإسلامي I 1405هـ/ 1985م، بيروت.
- الميلي، محمد، **ابن باديس وعروبة الجزائر**، الجزائر، 1980م.
- ابن نبي مالك، **مذكرات شاهد القرن: الطفل** (بالفرنسية) 1969، **الطالب** (بالعربية)1969م. ونشر الاثنان معاً (بالعربية)، بيروت، 1984م.
- النخلي، محمد، **آثار الشيخ محمد النخلي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995م
- هينيه، بتر P. Heine ، وطني شمالي إفريقي في برلين خلال الحرب العالمية الأولى، **في مجلة الغرب الإسلامي**، R.O.M. 33، (1982م). (بالفرنسية) [عن صالح الشريف].

دوريات :

- **الزيتونة.**
- **الشهاب.**
- **المنار**